

قضية اللفظ والمعنى في الخطاب النقدي المغربي "حتى منتصف القرن الخامس للهجرة"

د الشيخ بوقرية

جامعة وهران

إن قضية اللفظ والمعنى من قضايا النقد الأدبي الهامة ، شغلت نقاد اليونان منذ وقت مبكر، ثم انتقلت إلى العرب فكتبوا فيه ابحوثا مستفيضة ،تحدثوا فيها عن المعايير الجمالية التي تعد من أسس الحكم على العمل الأدبي(1)

وقد أشار أرسطو إلى قضية اللفظ والمعنى حين تحدث المسرحية والملحمة والخطابة فتحدث عن سلامة الفكرة ،والحقيقة الشعرية في العمل الأدبي (2) سواء أكان مسرحية أم ملحمة أم خطاب . والغاية المقصودة منه ، ترتيب أحداثه وتأليف موضوعه (3). على أن أرسطو لم يغفل الإشارة إلى ما بين الألفاظ والمعاني في الجمل من صلة ، فتحدث عن العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وقرر أن جمال الأسلوب هو في حسن نظام الجملة، وفي توازي أجزاء العمل الأدبي وتوافر السجع . أحيانا . بين هذه الأجزاء .

ويضيف أرسطو أن الحكم على أجزاء العمل الأدبي في أي جنس من أجناسه هو جزء لا يتجزأ من النظر العامة إلى بنائه العام، لأن جمال العمل الأدبي هو في تقابل أجزائه، وحسن نظامه .

بي أن أرسطو لم يطل الوقوف عند الألفاظ، ولا عند الوجوه البلاغية بصورة عامة ، لأنها مورد من الموارد الفنية الكثيرة التي "يتعلق بعضها بطبيعة

الفن من حيث هو فن، أو بطبيعة الجنس الأدبي (4). " (....)

كما أن أرسطو لم يطل الوقوف . أيضا . عند اللفظ والمعنى ، ولم يقبل بينهما ، لأنه كان يري أن الألفاظ علامات على المعاني ورموز له ،كم أنها وسيلة للمحاكاة ،وأداة للتعبير (5).

وقد سار النقد العربي في دراسته لقضية اللفظ والمعنى قريبا من هذا الإتجاه ، إلا أنه أولها عناية فائقة، وأصبحت قضية اللفظ والمعنى بذلك "من أكثر القضايا شهرة في الخطاب النقدي العربي القديم وقد نالت تبعا لذلك القسط الأكبر من إهتمام الباحثين المعاصرين ، فما من باحث في التراث النقدي إلا وعالج هذه القضية على نحو ما (6)"، وربما يعود السبب في هذا الإهتمام إلى كثرة النصوص النقدية التي نتحدث عن البناء الشعري من جانبه اللفظي والمعنوي. وقد انقسم نقاد العرب في ذلك إلى طوائف مختلفة ، تفاوتت مذاهبهم في القضية تفاوت كبيرا ، ولما كان موضوع هذه المداخلة يهدف إلى توضيح موقف النقاد المغاربة في قضية اللفظ والمعنى ، فسنعرض . بإيجاز. إلى آراء النقاد العرب في المشرق في هذه القضية :

أولا . من الذين عرفتموا بإحتفال بالمعنى وتقديمه على اللفظ أبو عمرو الشيباني ، فيما يروي الجاحظ وكذلك الأمدى وأبو تمام ،والمتنبي ،وابن الرومي، وابن الأثير، وكان هؤلاء النقاد لا يسقطون شأن الألفاظ في الكلام ، ولكنهم يؤخرون مرتبتها وينزلونها مرتبة ثانية بعد المعنى .

وقد بنو رأيهم على أن المعاني هي غاية الناس ، وأنهم يتكلمون للدلالة عليها كما أن الألفاظ ماهي إلا وسيلة لتوضيح المعاني .

بي أن جل من طلبوا صحة المعنى كانوا يقصدون إلى تقديمه على اللفظ ، دون أن يغفلوا من شأنه ، فهم ينزلونه منزلة ثانية تلي منزلة المعنى .
ثانيا. أما الفئة الثانية ، فتتمثل في النقاد الذين يقدمون اللفظ على

الفضاء المغربي ————— قضية اللفظ والمعنى في الخطاب النقدي المغربي

المعتنى ، ويشيدون بدور الألفاظ وأثرها في العمل الأدبي ويترون في الصياغة المقوم الحق الأدبي (7).

وبعد الجاحظ من أبرز النقاد الذين أشادوا بقيمة اللفظ ، ودوره في العمل الأدبي بما يحققه من جمال الصياغة ودقة التصوير ، يقول " ثم اعلم . حقك لله . أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ ، لان المعاني مبسطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء الم عني مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة (8)." يشير الجاحظ إلى قيمة اللفظ ، ودوره في الصياغة الأدبية دون يحدد مفهوم المعنى تحديدا صحيحا ، و اكتفى بالفصل بينه وبين المعنى الأمر الذي وضح قصور عملية الإيداع الأدبي عنده .

ومن النقاد الذين اختلفوا باللفظ وقدموه على المعنى ، أبو هلال العسكري الذي ردد مفهوم الجاحظ السابق ، لكنه لم يلتزم برأيه في تقديم اللفظ على المعنى ، وإنما عدل عنه وعاد مرة أخرى وقدم المعنى على اللفظ ، يقول " وليس الشأن في إيراد المعاني ، لان الم عاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب (9)." (....)

ثالثا . على أن هناك من النقاد من فصل بين اللفظ وا لم عنى فصلا لا يبين منه ترجيح لأحدهما على الآخر ، ويمثل هذه الفئة من النقاد ابن قتيبة ، وابن طباطبا العلوي .

رابعا . وهناك فئة أخرى النقاد العرب نظروا إلى اللفظ والمعتنى على حد سواء ، نذكر من هؤلاء النقاد قدامة بن جعفر الذي لم يقص ر جودة الشعر على اللفظ ولا علتى المعنى ، وإنما رآها في القصيدة مؤتلفة ومجتمعة (10).

ويعد عبد القادر الجرجاني أكثر نقاد العرب قاطبة تناولا لقضية اللفظ والمعنى ، وأدقهم لها فهما ، لانه نظرا إليها نظرة تتآزر وتلاحم ، (11) فقد درس آراء النقاد الذين سبقوه وتمثلها ، ثم أعمل فيها فكره ، فكان . كما يقول محمد

الفضاء المغاربي ————— قضية اللفظ والمعنى في الخطاب النقدي المغاربي

غنيمي هلال . المجلي في هذا الميدان ، (12) لأنه درس قضية اللفظ والمعنى انطلاقاً من النظم .

والنظم عنده يعتني صياغة الجمثل ودلالاتها على الصورة ، بحيث تكون الصيغة هي محور الفضيلة والمزية في الكلام يقول عبد القاهر في تعريف النظم " :اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها (13) " (.....)

وعقود النظم . أساساً . عند عبد القاهر الجرجاني على اللفظ والمعنى أي أن عبد القاهر يركز على عملية تأزر اللفظ والمعنى وتلاحمهما في العمل الأدبي تلاحماً كلياً ، لأنهما شريكان في الأهمية في نظرية النظم ، يقول عبد القاهر " لا . ومهما يكن من امر ، فقد درس عبد القاهر الجرجاني قضية اللفظ والمعنى دراسة جادة تكشف عن نضجها في بحوثه ، وكنا نود لو أنه تعمق في مدارستها ، وتجاوز مسألة التلاحم بين اللفظ والمعنى إلى الحديث عن فكرة وحدة العمل لفظي بوصفه كلاً لا يتجزأ ، وليس فقط التركيز على الصلورة لأدبية المفردة التي يتكون العمل الأدبي من مجموعة منه (15) .

ولم يختلف النقاد المغاربة في دراسة قضية اللفظ والمعنى عن النقد المشاركة ، فمنهم من ردّ مقومات العمل الأدبي إلى اللفظ مقلداً من شأن المعنى ، ومنهم من احتفل بالمعنى وقدمه على اللفظ ، ومنهم من سوى بين اللفظ والمعنى ، ونذكر من النقاد المغاربة : عبد الكريم النهشلي ، وأبا إسحاق الحصري ، وابن شرف القيرواني ، وابن رشيق القيرواني .

لم يفرد عبد الكريم النهشلي باباً خاصاً بقضية اللفظ والمعنى في كتابه (اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله) ، وإنما تحدث عنها في نص أورده تلميذه ابن رشيق في عمدته ، ونصه " :قال عبد الكريم . وكان يؤثر اللفظ على المعنى كثيراً في شعره وتآليفه . :الكلام الجزل أغني عن المعاني اللطيفة من المعاني

اللطيفة عن الكلام الجزل (16)"

يُنْصَرُ النهشلي . من الوهلة الأولى . لفظ ، ويهدي اهتمامه به ، وهو اهتمامه به وهو اهتمام يرجع إلى طبيعته الفنية ، وقد ظهر هذا جليا في شعره ، إذ كان عبد الكريم النهشلي . من الوهلة الأولى . لفظ ويهدي اهتمامه به ، واهتمام يرجع إلى طبيعة الفنية ، وقد ظهر هذا جليا في شعره ، إذ كان عبد الكريم النهشلي يحتفي باللفظ وجزالته على حساب المعنى ، ويرى أحد الباحثين أن مقدرة النهشلي في احتفائه باللفظ إنما تأتي باللفظ إنما تأتي من جهة براعته في تأليف الكلام ، وترتيب الألفاظ "حتى تؤدي المعاني لتي يطرقها ، وهو ينحرفي ذلك منحني الفخامة والجزالة شأنه شأن الشعراء الفحول (17)".

ثم ينتقل النهشلي إلى عرض آراء بعض النقاد في مسألة اللفظ والمعنى ، يقول "قال بعض الحذاق :المعنى مثال، واللفظ حدوة ، والحدو يتبع المثال ، فيتغير بتغيره نويثبث ثباته (18)".

فالمعنى . حسب النهشلي . يستدعي الألفاظ المعبرة عنه ، وبذلك تكون الألفاظ تابعة للمعاني تتغير بتغيرها ، ثم يعرض النهشلي . بعد ذلك . قول العباس بن الحسن العلوي في وصف بليغ :معنيه قوالب لألفاظه ، هكذا حكى عنه عبد الكريم (19)". (....)

ومهما يكن من أمره ، فقد لخص عبد الكريم النهشلي رأيه في قضية اللفظ والمعنى دون أن يتعصب لرأيه فيه ، وإنما كان يورد آراء غيره حتى ولو كانت مخالفة لرأيه.

والذي يمكن ملاحظته . هنا . هو أن النهشلي فلم يهتم بقضية اللفظ والمعنى ، وإنما أوجز القول فيها ، ففضل اللفظ وقدمه على المعنى (20). دون أن يعطي تعليلا لذلك ، ويرى بشير خلدون أن ضياع النصوص التي سقطت من كتاب (اختيار الممتع) هو الذي جعل موقف عبد الكريم النهشلي من قضية اللفظ والمعنى غامضا ، بحيث لا نستطيع أن نجزم بأنه لم يهتم بها كغيره من النقاد في المشرق

والمغرب (21).

لذا جاء رأيه في هذه القضية مقتضبا، أورده تلميذه ابن رشيق في عمدته ،
وكنّا نود لو أن النهشلي فصل في هذه القضية النقدية الهامة التي تعد من أهم
دعائم العمل الأدبي .

أما أبو اسحاق إبراهيم الحصري ، فقد ردد رأي الجاحظ في مسألة اللفظ
والمعنى(22)، محتديا حذوه في الإحتفال باللفظ وتقديمه على المعنى .

ودرس محمد بن شرف القيرواني قضية اللفظ والمعنى في رسالته (مسائل
الإنقاذ) يقول ابن شرف " : وإن من الشعر ما يملأ لفظه المسامع ، ويرد على
السامع منه قعاقع ، وانظر إلى ما في سكناه من معناه (...) والمعاني هي الأرواح ،
والألفاظ هي الأشباح ، فإن حسنا ، فذلك الحظ الممدوح ، وإن قبح أحدهما ، فلا فلا
يكن الروح (23). "

ينضح منهذا النص ان ابن شرف قدّم رأيه بوضوح في قضية اللفظ والمعنى
، فشبه المعاني بالأرواح ، والألفاظ بالأشباح .

وبعبارة أخرى، إن ابن شرف يدعو إلى الإرتباط التام بين اللفظ
والمعنى وهذا الإرتباط لا يأتي إلا بتبعية الألفاظ للمعاني ، وهو لا يعني ترجيح
أحدهما على الآخر ، لأن اللفظ لا يقوم لا يأتي إلا بتبعية الألفاظ للمعاني ، وهو لا
يعني ترجيح أحدهما على الآخر لأن اللفظ لا يقوم إلا بالمعنى، فهما شريكان في
الأهمية .

بيد أن ابن شرف لم يفصل في القضية ، ولم يعزز رأيه بشواهد شعرية
تدعم رأيه ويبدو أن ابن شرف حذا حذو معاصره ابن رشيق ، وقلده في تشبيه اللفظ
بالجسم والمعنى بالروح واشترط لجودة الأدب سلامة الإثنين . اللفظ والمعنى . من
العطب ، ثم ذهب إلى أنه

إذا كان التقصير في اللفظ محتملا، فإن التقصير في المعنى غير محتمل .
وتعرض ابن رشيق لدراسة قضية اللفظ والمعنى ، فافرد لها بابا مستقلا في عمدته

استهله بقوله "اللفظ جسم ، روحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم :
يضعف بضعفه ويقوى بقوّته فإذا سلم المعنى واختلّ بعض اللفظ ، كان نقصا
للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الجسام من العرج والشلل والعمور وما اختل
بعضه كان للفظ من ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعف المعنى
واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذي يعرض للأجسام من المرض
بمرض الرواح (24)" (.....)

يشري ابن رشيق إلى الارتباط التام بين اللفظ والمعنى ، كما يدعو صراحة
إلى نظرية التأزر الذي دعا إليها عبد القاهر الجرجاني قبله ، بحيث لا يملح في
هذا الارتباط ، أو التأزر أي أثر للتناقض أو انحياز لأيّ من الجانبين (25).
فقد شبه ابن رشيق اللفظ بالجسم ، و شبه المعنى بالروح ، والعلاقة بينهما
قوية جدا ، تشبه العلاقة بين الجسم بالروح ، فإذا اختل اللفظ أو المعنى ضعف
العمل الأدبي ، وأصبح خاليا من القيم الجمالية والفنية ، أي يصبح عملا بلا معنى
، لذا دعا . صراحة . إلى ضرورة التلاحم بينهما قصد إنجاح العمل الأدبي ، وذلك
من خلال الإهتمام بالعبارة الشعرية ، والنظر إليها من ناحية جمالية ونقدية
تحرر عن قيمتها في البناء الشعري .

الهوامش

- (1) الدكتور محمد غنيمي هلال :النقد الأدبي الحديث :ص251 :
- (2) ينظر ، كتاب أرسطو :فن الشعر :ترجمة الدكتور إبراهيم حمادة :ص، 114 وما بعدها .
- (3) ينظر :أرسطو طاليس ، فن الشعر ، ص 56 :وما بعدها .
- (4) الدكتور محمد غنيمي هلال :المرجع السابق :ص ، 253
- (5) ينظر، الدكتور عصام قصيحي ، نظرية النقد الأدبي ، ص 13. 19.
- (6)الدكتور عبته الفتاح عثمان :نظرية الشعر في النقد العربي القديم ص 133
- (7) الدكتور محمد غنيمي هلال ، المرجع السابق ، ص، 256
- (8) البيان والتبيين ، ج 1/ص، 76
- (9)الصناعتين ، ص، 58. 59
- (10) رقد الشعر ، ص، 26
- (11) ينظر :الدكتور محمد غنيمي هلال :المرجع السابق :ص، 285
- (12) ينظر ، الدكتور محمد غنيمي هلال ، المرجع نفسه ص ، 267
- (13) دلائل الإعجاز ، ص 81 :
- (14) أسرار البلاغة ، ص، 8
- (15) ينظر :الدكتور محمد غنيمي هلال ، المرجع السابق ،ص، 286
- (16) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ج1/ص 256
- (17) ينظر :احمد يزن :النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي،ص، 99
- (18) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ج1/ص 256 .. 257
- (19)ابن رشيق ، المصدر نفسه ، ج 1/ص ، 257
- (20)الدكتور عبد العزيز قليقة ، النقد الأدبي في المغرب العربي ، ص، 363 .
- (21)ينظر،الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي،ص ، 172 .. 173
- (22)ينظر:زهر الآداب وثمر الألباب ، ج 1/، ص، 148 . 149،
- ويقارن بالبيان والتبيين ج1/، ص، 75 .. 76
- (23)مسائل الإنتقاد ، 160 .. 161
- (24)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ج1/ص، 252.
- (25)ينظر ، الدكتور شوقي ضيف ، في النقد الأدبي ، ص ، 163.